دور الاسلام فى تقدم البلاد التى دخلها

و

دور المسلمين فى التعريف بالأقطار التى عمروها و حكموها

مقدمة على كتاب

« نجنة المشرق و مطلع النور المشرق »

للعلامة السيد عبد الحى الحسنى (م ١٣٤١ ﻫ)
مدير ندوة العلماء سابقاً .

بقلم
الأستاذ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى
الأمين العام لندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

www.abulhasanalinadwi.org

دور الاسلام

فى تقدم البلاد

التى دخلها

و دور المسلمين فى التعريف بالأقطار التى عمروها و حكموها

ننشر هنا مقالا للاستاذ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى و هو فى الأصل تقديم لكتاب والده العظيم العلامة السيد عبد الحى الحسنى (م ١٣٤١) ، مدير ندوة العلماء سابقاً « جنة المشرق و مطلع النور المشرق » .

و هو حلقة ذات قيمة كبيرة من سلسلة كتب الخطط و الآثار التى ألفها المؤلفون الاسلاميون فى مختلف البلاد والأعصار ، و قد جاء فيه استعراض إجمالى للكتب الرئيسية التى ألفت فى هذا الموضوع ، فى الأندلس ، والمغرب الأقصى و مصر ؛ و الشام ، و الهند ، و تعريف بهذا الأثر العلمى الكبير الذى لم يطبع بعد ، و لم يطلع عليه إلا بعض الأفراد فى الهند .

وهذا المقال عصارة دراسة عميقة لتاريخ الحضارة الاسلامية ، و سند تاريخى للمؤرخين و الباحثين فى تاريخ الحضارات .

« التحرير »

إذا صح أن الوطن المالوف بمنزلة الأم ، لها حق لا يضاع ، و إليها حنين لا ينكر (١) فقد سجل تاريخ العلم و الأدب و الكتابة

(١) كلام مقتبس من مقدمة « جنة المشرق » لمؤلفها .

www.abulhasanalinadwi.org

و التأليف، أمثلة رائعة ، و آيات باهرة من هـذا الوفاء الكريم و البر السامى النزيه لأبناء البلاد البررة لأمهم الحنون التى ولدتهم و أرضعتهم و التى قضوا فى أحضانها أطيب أيام حياتهم و أصفاها ، و عاش فيهـا و دفن آباؤهم الذين يحبونهم و يجلونهم ، و لهم فيهـا آثار و ذكريات .
و تغنى بها الشعراء قديماً و حديثاً ، فقال ابن الرومى :

و لى وطن آليت أن لا أبيعه
وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما
بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
و حبب أوطان الرجال إليهم
مآرب قضاهـا الشبـاب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيهـا فحنوا لذلكا

و قال الآخر : بلاد بها نيطت على تمائمى
وأول أرض مس جسمى ترابها

و قد كان المسلمون بفضل التعاليم الانسانية الخلقية التى تلقوهـا فى مدرسة الرسالة المحمدية ، من أوفى الأمم و الشعوب للبلاد التى ولدتهم وأنشأتهم أو آوتهم واحتضنتهم ، ومن أبر الأبناء لتلك الأمهات المعنوية ، ومن أحرص عباد الله على شكر النعمة ومعرفة الحق والفضل ، وأحرصهم على تسجيل الأخبار و تخليد الآثار و إثارة الدفائن و إيضاح المعـالم ، و الكشف عن المجاهل و البحث عن الحقيقة و تحرى الصدق و الدقة ، و الأمانة فى الحكاية و الرواية ، ساعدهم فى ذلك ذوقهم التـاريخى الذى

رافقهم من أول رحلتهم و فجر نشأتهم ، و طبيعة التحقيق التى اقترنت بحياتهم وأخلاقهم منذ عنوا بفن الحديث والرواية ، و دونوا علم الأصول و فن أسماء الرجال ، فكانوا رائد البحث العلمى و حامل فن التاريخ الأمين فى كثير من البلاد التى وردوا فيها .

وإذا أراد الله ببلد خيراً وأراد أن يخرجه من الظلمات إلى النور ؛ و من الخفاء إلى الظهور ؛ و من حياة العزلة و الخمول ، و القناعة بالنزر اليسير و الانطواء على النفس ، إلى حياة الشهرة و الاتصال ببقية الأسرة الانسانية و العالم المترامى الواسع ، و ركب الحيـاة السيار . و أراد أن يسلط عليه أضواءاً قوية من العلم و التحقيق ساق إليه المسلمين فاتخذوه وطناً و سكناً ومعاشاً و مدفناً ، و لم يعتبروه بقرة حلوباً أو ناقة ركوباً، يحلبون ضرعها و يركبون ظهرهـا و يجزون صوفها ثم يتركونها هزيلة عجفاء أو منتوفة شوهاء ؛ ولا يعتبرون نفوسهم كالاسفنج يتشرب الثروة فى مكان و يصبها فى مكان ، (١) بل وهبوا هذه البلاد أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة ، و أخلاق وسجايا و مقدرة و كفاية ، وتنظيم وإدارة، وأقبلوا عليها بالعقل النابغ ، و الشعور الرقيق ، و الذوق الرفيع ، والقلب الولوع و اليد الحاذقة الصناع ، فنقلوهـا من طور البداوة إلى طور الحضارة ، و من عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغض ، و أمنت بعـد خوف ، واستقرت بعد اضطراب ، و أخذت الأرض زخرفهـا و بلغت المدنية أوجها ، و تحولت الصحارى الموحشة و الآراضى القاحلة إلى مدن

(١) كما كان شأن الانكليز فى الهند و فرنسا فى الجزائر والمغرب الأقصى ، وايطاليا فى طرابلس و برقة .

www.abulhasanalinadwi.org

زاخرة و أراضى خصبة ، و تحولت الغابات حدائق ذات بهجة ، و أشجار البرية أشجاراً مثمرة مدنية ، و نشأت علوم لا علم بها للاولين ، و فنون و أساليب فى الحضارة و الحكم والفن لا عهد بها فى الماضى ، وانتشرت التجارة و ازدهرت الزراعة فكأنما ولدت هذه البلاد فى العهد الاسلامى ميلاداً جديداً و لبست ثوباً قشيباً .

هذه قصة أسبانيا التى سماها المسلمون بلاد الأندلس ، فلم يكن العالم يعرف عنها إلا الشئ القليل الذى لا يشرح الصدر ولا يبعث الآمال ، فلما دخلت هذه البلاد فى ولاية العرب المسلمين وفى حضانة الاسلام بلفظ أصح ، انتقلت من الظلام إلى النور ، و لفظت الأرض خزائنها وصبت خيراتها ، فكانت أمنية الفاتحين و أغنية الشعراء و المتغزلين و موضوع المؤرخين و الجغرافيين ، و كانت جنة الدنيا و سوق العلم و مثابة العلماء و منتجع الشعراء ، و كانت ذات مدرسة فى الفقه و الشعر و الأدب و الفلسفة والفن المعمارى ، وكانت فيها مرسية ، و بلنسية ، و جيان ، و شاطبة ، و قرطبة ، و إشبيلية ، و غرناطة ، و كانت فيها مدينة الزهراء و قصر الحمراء .

و هذه قصة مصر و الشام و العراق و ايران و تركستان بعد الفتح الاسلامى ؛ فكانت كماء راكد قد أسن ؛ و كانت مطية للرومان والفرس ينعمون بثرواتها و حاصلاتها و بكدح عمالها و فلاحيها و لم تكن هذه البلاد قبل فتح المسلمين ذات طابع خاص فى المدنية و الآداب و الفن . و لم ينبغ فيها علماء و شعراء و فقهاء و مشرعون و حقوقيون و مبدعون و عمالقة الفكر و عباقرة الفن ، دوى اسمهم فى الآفاق و سارت بمصنفاتهم

الرفاق و ردد العالم صوتهم من أقصاه إلى أقصاه و سمع صدى أفكارهم و تحقيقاتهم فى الشرق و الغرب ، حتى جاء الاسلام فكانت البصرة والكوفة والموصل وبغداد فى العراق ، و دمشق و حلب وحمص ونابلس والقدس الاسلامى وطرابلس وحماه فى الشام ، والفسطاط والقطائع والقاهرة و أسيوط والمنصورة ودمياط فى مصر ، و سمرقند و بخارا و الشاش (١) و خوارزم فى تركستان . و الرى و همدان و نيشابور و شيراز و طوس وأصفهان فى ايران (٢) ظهر فيها نوابغ لا يحصيهم إلا من أحصى حصى البطحاء ورمال الدهناء .

و هذه قصة شمال إفريقيا من ليبيا إلى مراكش ، فلم تعرف هذه البلاد إلا بالقسوة والفروسية و شدة الشكيمة واستعصاء أهلها على الفاتحين حتى ضرب بأهلها البربر المثل فى الوحشية و النخوة ، و تشاغلها بالحروب الداخلية و شدة تمسكها بالعادات القديمة و التقاليد القبلية ، لا لغة راقية و لا حضارة رقيقة و لا دين معقول و لا مدينة مشهورة حتى جاء الاسلام ، فكانت فيها مدينة قيروان و فاس و مكناس و مراكش وباجة و سوسة ، و سرقسطة و بجاية و تلمسان و تونس ، أنجبت أفذاذاً فى الحديث و التفسير و الفقه و التصوف و الشعر و الأدب والنقد و التاريخ و الفلسفة ، يطول استقصاؤهم ، و كانت فيها مدارس كجامع القرويين و جامع زيتونة تخرج فيها و علم أئمة فى العلوم و الفنون و خلفوا آثاراً

(١) و تسمى الآن طاشقند .

(٢) و قد اقتصرنا على قليل من أسماء المدن التى لمعت فى التاريخ الاسلامى على سبيل المثال ، وإلا هى أكثر من أن تستقصى .

www.abulhasanalinadwi.org

باقية ما دامت اللغة العربية و العلوم الاسلامية .

و هذه قصة الهند ، فكانت تعيش فى عزلة عن العالم ، يحجزها عن العالم المتمدن البحر فى الجنوب و الشرق و سلسلة الجبال من أكبر جبال العالم ارتفاعاً و طولا فى الشمال و الغرب ، لا يتمثلها العالم المتمدن ولا يراها إلا فى مرآة العقائد المتطرفة و الأساطير الشائعة عن الرياضات المرهقة و الزهد المتبتل و تعذيب الجسم ، و التغلب على مطالب النفس و قهرها ، و التمسك بفلسفة وحدة الوجود ، و البراعة فى بعض العلوم الرياضية و الفلك ، واتساع المساحة و خصب الأرض و وفور الخيرات ، و لا تفتح نافذة ينظر منها العالم إلى هذه البلاد المطوية المغلقة إلا عن طريق بعض الفاتحين كالاسكندر المقدونى ، أو عن طريق بعض المحققين الباحثين كأبى الريحان البيرونى (١) (م - ٤٤٠ هجـ) قد وقفت مدنيتها على ما كانت عليه قبل آلاف من السنين ، و لم تشتغل اليد الحاذقة فى زيادة الثروة و تسهيل الحياة و ترقيق المدنية و توسيع الثقافة كما اشتغلت فى بلاد مجاورة ، فبقيت على ماكانت عليه (٢) من مدنية و فن وزراعة

---

(١) يرجع إلى كتابه « تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة فى العقل أو مرذولة » .

(٢) إقرأ صفة الهند و ما كانت عليه من مدنية وانتاج وصناعة وثمار وفواكه ، وأدوات مدنية ومرافق الحياة فى منتصف القرن العاشر الهجرى بقلم السلطان بابر التيمورى الرسام المصور فى كتابه الخالد « تزك بابرى » أو إقرأ ترجمته بالعربية فى كتابنا « المسلمون فى الهند » ص ٢٦ - ٢٧ .

و أساليب للحياة ، حتى دخلها المسلمون فحملوا إليها أجمل ما عندهم من عقيدة توحيد و مساواة إنسانية و حقوق عامة لجميع الطبقات ، و مدنية رقت حواشيها و طالت ذيولها ، و ثقافة شارك فى توسيعها و تهذيبها عبقريات عدة شعوب وتجارب عدة أمم ، وإدارة قد مارسوها وأتقنوها فى ميادين شتى ، فدخل معهم الهواء الطرى النقى ، ولقاح الأفكار المتباينة و الفن الذى نضج و اختمر ، و تنظيم البلاد و سياسة الحكم التى طالت تجربتهم فيها ؛ و التقت الفروسية التركية و قوة الارادة المغولية ، والنخوة الأفغانية مع الشريعة الاسلامية السمحة ، و الطموح العسكرى الادارى الذى لا يخضع لصعوبة ، ولا يؤمن بخطر ، ومع طبيعة البلاد والشعوب التى اختلطوا بها الرقيقة الوادعة التى تتدفق برسالة الحب و الرفق والغناء المطرب و الشعر الرقيق ، و الكرم الأصيل ، و حب التعمق فى كل علم و فن ، التقى كل ذلك فى إنشاء حضارة جديدة تستحق أن تسمى « الحضارة الهندية الاسلامية » وفى تجربة سياسية إدارية تجدر بأن تسمى « الحكم التركى الاسلامى الهندى » أو « الحكم المغولى الاسلامى الهندى » وفى تكوين فن معمارى يستحق أن يسمى « الفن الاسلامى الهندى » فاذا تجلت هذه العبقرية الممزوجة المركبة فى أساليب الحكم والادارة والتنظيم . كانت عبقرية علاء الدين الخلجى (م ٧١٦هـ) فى قوانين التجارة والمعاملة و التسعير و رخص المواد الغذائية و صلاح أخلاق التجار و أهل الحرف .

وإذا كانت عبقرية تجلت فى الحب والحنان والأنغام والألحان ،

www.abulhasanalinadwi.org

كانت عبقرية الأمير التركى الهندى الأمير خسرو (١) أمير شعراء الهند (م ٧٢٥ ﻫ) فظهرت فى شعره الرقيق الرائق ، الذى كاد يسيل رقة و عذوبة وكان يضرب على أوتار القلب ، و ظهرت فى تفننه فى أغراض الشعر و ضروبه واقتداره على عدة لغات .

و إذا كانت عبقرية تجلت فى الانسانية السامية و الأخلاق الفاضلة و الحياة النافعة كانت عبقرية الشيخ نظام الدين محمد البدايونى الدهلوى (م ٧٢٥) التى ظهرت فى زهده و شفقته على الخلق وإيثارهم على النفس .

وإذا تجلت هذه العبقرية فى طيب القلب وتأمين البلاد وخدمة العباد ، كانت عبقرية فيروز تغلق (م ٧٩٩ﻫ) التى تجلت فى الأمن المنقطع النظير الذى لم تعرفه البلاد من قبل ، و فى كثرة الأنهار و تنظيم الرى و تعايش أهل البلاد السلمى وارتفاع المظالم وقلة نسبة الجنايات .

و كانت عبقرية شير شاه السورى (م ٩٥٢ ﻫ) فى سن القوانين و ضبط البلاد و ترفيه السكان ، و تجلت فى هذا الشارع الذى كان يبتدئ من ماء نيلاب فى أقصى الشمال الغربى إلى سنار كاؤن فى أقصى الشرق ، و بناء الخانات و تهيئة أسباب الراحة و الخفارة للقوافل و السابلة ، و فى وضع دستور الحكم العام الحكيم ، و تحقق كل ذلك فى خمس سنوات .

(١) هو من أصل تركى صميم و خئولته من الهند ، ولد فى «بتيالى» فى الولاية الشمالية ، وكان إماماً فى الشعر والموسيقى ، وله اختراعات واجتهادات فيهما .

و إن تجلت هذه العبقرية فى الجمع بين الفضائل العلمية والعملية و بين السيف و القلم و القدرة الأدبية الشعرية فى لغات متنوعة ، كانت عبقرية الأمير عبد الرحيم خانخانان (م ١٠٠٥ﻫ) القائد العسكرى الكبير ومن أركان الدولة المغولية الذى جمع بين قيادة الجيوش وصدارة الأدب و الشعر ، و تربية الأدباء و الشعراء ، و يعتبر من الشعراء المفلقين فى اللغات التركية والفارسية والهندية الوطنية (١) .

وإذا تجلت هذه العبقرية فى الذوق الرقيق وحسن الاختيار وصفاء الحس و رقة الشعور ، كانت عبقرية جهانكير (م ١٠٣٧ﻫ) فى ترقية الثمار والفواكه ، و فى تلقيح الأشجار ، والتفنن فى المآكل والمشرب ، و إذا تجلت هذه العبقرية المزدوجة المركبة ، الرقيقة المهذبة ، فى الفن المعمارى والهندسة والبناء والآثار الجميلة الخالدة كانت عبقرية شاهجهان التى تجلت فى التاج محل ، الدرة الفريدة المعمارية و فى جامع شاهجهان فى «دهلى» و القلعة الحمراء ، و إذا تجلت هذه العبقرية فى قوة الارادة وقدرة الادارة وقيادة الجيوش ، وإخضاع البلاد لحكم واحد وقانون واحد ، والاشراف عليها فى وقت واحد، تجلت فى عبقرية أورنك زيب فى إخضاع جنوب الهند الذى تمرد على الفاتحين

(١) هو عبد الرحيم ابن بيرم خان (أحد مؤسسى الدولة المغولية) من أصل تركى أصيل و أمه هندية ، و يعتبر من أئمة الشعر الهندى (غير الأردية) كان يتلقب فيه «برحيم» و يقر بفضله أدباء الهنادك و يعدونه من شعرائها المعدودين الذين نبغوا فى المسلمين (اقرأ ترجمته الحافلة فى نزهة الخواطر و بهجة المسامع و النواظر » فى الجزء الخامس)

www.abulhasanalinadwi.org

الأولين ، و بقى محافظاً على استقلاله وشخصيته أكثر الوقت ، وفى ديانته و تقواه ، و أخذه بالعزائم ، و ظهرت فى تدوين « الفتاوى الهندية » و فى إحياء السنن النبوية و إزالة العادات و الشعائر الجاهلية التى تمسك بها أجداده ، و عضوا عليها بالنواجذ ، و إذا تجلت هذه العبقرية فى ميدان العلم والفكر الاسلامى والغوص فى مقاصد الشريعة وأسرار الكتاب و السنة ، و تمحيص الحق و الباطل ، والخالص و الزائف ؛ تجلت فى معارف الشيخ شرف الدين يحيى المنيرى (م ٧٨٦) و حمية الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى (م ١٠٣٤هـ) وحكمة الشيخ ولى الله الدهلوى (م ١١٧٦هـ) فكانت الهند عالماً مستقلا لا بالمعنى القديم الذى كانت تعيش فيه قبل دخول الاسلام ، و لكن بالمعنى الجديد الذى وصلت إليه بعد الفتح الاسلامى من تفوق فى أساليب الحكم ، و براعة فى كثير من العلوم الاسلامية و قيادة لعدة حركات اصلاحية ، و ابداع فى كثير من فنون الحضارة والاجتماع .

فكانت فى حاجة إلى استعراض تاريخى شامل دقيق و مقارنة أمينة بين الماضى و الحاضر و ما كان للهند من تراث و بقايا و ما حمل إليها المسلمون من طرف وهدايا ، وكانت فى حاجة إلى مؤرخ واسع الاطلاع دقيق الاحصاء ، واسع الصبر و الأناة ، قد نقب فى المكتبة الاسلامية و عاش فيها مدة طويلة لا يرى اللذة إلا فى إحياء مآثر السلف وإيتائهم ما يستحقون من الاعتراف والشكر .

و قد كان من سعادة الأندلس الاسلامية أن قيض لها مؤرخ وصاف و أديب رسام مثل محمد لسان الدين بن الخطيب من وزراء دولة

غرناطة (١) فألف كتابه الفريد « الاحاطة فى أخبار غرناطة » فى ثلاثة أجزاء ، فكان موسوعة صغيرة فى مايتصل بعاصمة العرب المسلمين الأخيرة فى الأندلس ، و قد طرق فى هذا التاريخ باباً قل من سبقه إليه من مؤرخى العرب ، وهو أنه افتتح الكتاب بقسم جغرافى خطط فيه ولاية غرناطة و ما يتبعها من القرى و الجنات ، و ذكر فيه عوائد أهلها ومعائشهم وأزياءهم وجندهم وسلاحهم وكثيراً مما يتعلق بحالهم الاجتماعية لعهده » (٢) .

و قد فاق هذا الأثر العلمى الخالد أثر آخر لمؤلف مغربى جاء بعده يجدر أن يتطاول به المغرب على بلاد الشرق الاسلامية ، و هو يحيط بالأندلس إحاطة أكمل وأشمل وأوفى و أجمل وهو الكتاب الطائر الصيت « نفح الطيب لغصن الأندلس الرطيب» للعلامة أحمد المقرى المغربى المالكى (م ١٠٤١ هجـ) و هى دائرة معارف و معجم مستقل فى كل ما يتعلق بالأندلس ، مشحون بالتاريخ و الأدب و الشعر والملح ، فى أسلوب أدبى وسجع ، وفيه فوائد كثيرة و مادة غزيرة وعلم منثور ونوادر وحكايات ، ممزوج بأخبار غير الأندلسيين وما لا صلة له بالموضوع ، بأدنى مناسبة ، و لكنه لا يخلو من الفائدة ؛ و إن كان ينقصه التنقيح و التأليف المرتب على النسق الجديد ـ و الكتاب فى أربعة أجزاء كبار ؛ إلا أن الجزء الثالث و الرابع فى ترجمة لسان الدين بن الخطيب وحده ، وقد أولع به هواة الأدب و الانشاء البليغ و النثر الفنى قديماً و حديثاً و اعتنوا به

---

(١) مات شهيداً ٧٠١ هجـ .
(٢) العبارة مقتبسة من تقديم الكتاب للاستاذ رفيق العظم .

www.abulhasanalinadwi.org

اعتناءاً كبيراً .

و كانت سعادة مصر من هذا الوصف و التصوير و تخليد الآثار و حفظ الأخبار أوفى و أوفر من كل قطر زها فى العهد الاسلامى ، و ذلك بفضل ابنها البار العلامة تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى (م ٨٤٥ هج) فقد ألف كتابه العظيم «كتاب المواعظ و الاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » المشهور بخطط مصر (فى جزئين كبيرين) و قد استقصى فيه الدقيق و الجليل ، و لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ذكر فيه المدن و المسالك ، و الشوارع والحارات ؛ والدروب والأزقة والخوخ و الرحاب ، و لدور والقصور ، و الحمامات و المارستانات ، و القياسرة والخانات ، و الفنادق والأسواق ، و القناطر و الجسور ، و البرك والسجون ، و المساجد و المدارس ، والخانكاهات والربط ، والمشاهد والجواسق ، والمقابر والكنائس ، و ذكر الأعياد و المواسم ، والدواوين و رتب الأمراء والخزائن ، و رتبة الوزارة و هيئة خلعهم ، و مقدار جاريهم . وذكر فيه صلاة العيد و ما يتعلق بها ، و ذكر المناظر والمنتزهات و العوائد التى كانت بقصبة القاهرة، و المكوس ، و الصناعات ، و النظر فى المظالم و الجيوش و الحجبة ، وأحكام السياسة ، و مذاهب أهل مصر و نحلهم و لكن الحديث أكثره منصرف إلى القاهرة و دائر حولها ، و ما كانت عليه القاهرة المعزية فى حياته من مدنية وعمارة و عادات و اجتماع و طراز للحياة ، وآثار باقية ؛ وقد مضى على وفاة المؤلف أكثر من خمسة قرون و ما جاء بعده ـ على كثرة المؤلفين و المؤرخين فى مصر ـ من يخلفه فى تسجيل ما جد وتغير

و فى وصل الحاضر بالغابر ، و على كل فالكتاب مأثرة علمية تأليفية تتباهى بها مصر ، و برهان ساطع على وفاء علماء المسلمين و مؤلفيهم لأوطانهم و همتهم السامية فى التأليف و التدوين و تخليد الآثار .

أما الشام فقد صنف ابن عساكر (م ٥٧١ هج) كتابه المشهور تاريخ (١) دمشق ، الذى هو بمكتبة أو بدائرة معارف أشبه منه بكتاب مفرد ، وأكثره تراجم رجال . ثم وقعت فترة طويلة فى صفة الشام وذكر أخباره و آثاره و مدنيته و حضارته . وما حباه الله من جمال و كمال و سحر و شعر ؛ و ما طرأ عليه من تطورات ، و حكومات وعادات ، و صناعات و أوضاع ، و تصوير ما عليه هذا البلد من حياة واجتماع ؛ و حاصلات و معايش ، حتى قام أحد أبنائه الأوفياء وهو الأستاذ محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق سابقاً ، فألف كتابه القيم « خطط الشام » فسد هذه الثغرة ، و ملأ هذا الفراغ ، واستحق شكر أبناء وطنه و كل معجب بالشام ، معترف بفضله فى تاريخ الاسلام .

و قد كانت للهند (٢) الاسلامية شخصية إسلامية ممتازة ، و دور مستقل فى توسيع الحضارة الاسلامية و تجارب الحكم ومجال العلوم الدينية

(١) قال العماد : عن أجزاء « تاريخ دمشق » و هو يحتوى على سبع مأة كراسة ، كل كراسة عشرون ورقة ، و قال : إنه فى خمس مأة و سبعين جزءاً ، والنسخة الجديدة فى ثمان مأة جزء .

(٢) إذا أطلقنا كلمة الهند فانما نعنى بها شبه القارة الهندية و القطر الهندى كله قبل التقسيم .

www.abulhasanalinadwi.org

إذا لم يكن لها دور فى إنشائها وتكوينها ، كما قدمنا فى السطور الماضية ، وهى حلقة ذهبية فى سلسلة الذهب التى يتحلى بها جيد الاسلام ، ويتجمل بها تاريخ المسلمين ، وقد نشطت حركة التأليف والتدوين منذ فجر الاسلام فى هذه البلاد ، ونبغ فيها مؤلفون و مؤرخون ، يعدون بالمئات ، ولكن جل مؤلفاتهم و آثارهم العلميـــة إما تدور حول البلاد و شخصيات الملوك و إما تدور حول الزوايا و من كان فيها من الشيوخ الكبار ، و أكبر همهم تدوين أخبار الفتوح وأخبار الشجاعة والكرم ، و تسجيل الخوارق و الكرامات ، والمجاهدات و الرياضات ، و القليل النادر منها ما يتحدث عن العلماء و الأدباء ، و يسجل أخبارهم ، وهذا القليل النادر يتجرد عن ذكر التفاصيل التى تتكون بها سيرهم الحقيقية وتتمثل بها صورتهم الواقعية ، أما ما كانت عليه البلاد فى مختلف العهود من حضارة و مدنية ، و رقى و تقدم و ما كانت عليه سياسة البلاد وأساليب الحكم والتنظيم الادارى ، و تحصيل المالية و الجبايات ، و قيادة الجيوش و نظام الحروب ، وكيف كانت الحـــالة الاقتصادية ، و إلى أين وصلت مجابى البلاد و مواردها فى حكومات مختلفة و عهود مختلفة ، وكيف كانت طريقة الملوك الاسلاميين فى القضاء و العدل ، و فصل الخصومات ، و ما هى عاداتهم فى الجلوس للناس ، و الخروج فى المدن ، والجولات فى المملكة ، و ما هى عاداتهم و سننهم فى الأعياد و المواسم ، و ما هى الأيام التى كانوا يحتفلون بهـا و كيف كانوا يظهرون سرورهم فى الأفراح وعطفهم على الرعية ، وما هى الرتب و المناصب الرئيسية فى دور حكمهم و كيف كانوا يقلدونها أهلها ، وما هى جرايات أهل المناصب و مرتباتهم ، وما هى الحقوق و التكريمات

التى كانوا يتمتعون بهـا ، ثم ما هى الأمور الخيرية التى وفق لهـا الملوك المسلمون فى عهدهم الطويل ، و ما هى المآثر و المبرات التى شادوها لترقية البلاد و ترفيه العباد ، و إطعام الجائع و إغاثة الملهوف و تأمين السبل ، و ما هى سوابقهم و أولياتهم و مخترعاتهم فى السياسة و الحكم و تنظيم البلاد وتحصيل الخراج وترقية الزراعة ، والتجارة وما هى طرازهم الخاص فى الفن المعمارى و ما هى التحسينات التى أدخلوها على المدنية ، إلى غير ذلك مما تهم معرفته . فقـــد صورهم بعض المؤرخين المتحيزين إلى فئة ، الخاضعين لأغراض سياسية أو طائفية ، ملوكا جبارين ، غلاظاً شداداً ، قساة جفـاة ، لا يحملون إلا السيف و لا يحسنون إلا صناعة الحرب ، و لا يعرفون إلا لغة الدم و الدرهم ، لا ذوق عندهم و لا ذكاء ، و لا أصالة فى فنهم ولا اختراع .

وكان الذى يطالع مؤلفات مؤرخى الهند المسلمين ـ وجلها بالفارسية ـ لا يستطيع أن يقدم لهذا العهد صورة مشرقة ، أو يهتدى إلى مآثرهم فى ضوء هذه الكتب ، فاما يتجرد أكثرها عن هـذه المواد تجرداً يمكن المؤرخين المتشائمين المغرضين من تائيد دعواهم ، وإما يجدها القارىء مبعثرة فى هذه الكتب الكبيرة الضخمة ، مطمورة تحت ركام أخبـار الحروب والفتوح ، و قصص السطوة والقسوة ، والصلات السنية السخية والجوائز المشدهة للعقول ، و كان القارى يشعر فى أثناء قراءته بأنه يمشى فى نفق مظلم لا ضوء فيه ولا هواء ، فلا يتبين من يمر به فى هذه الرحلة ، ولا يرى الأزياء ، ولا يعرف النقود التى كانوا يتعاملون بها ، والقواعد التى يلتزمونها ، و أسس الحكم التى يسيرون عليها ، إلا بعض اللمعات أو

www.abulhasanalinadwi.org

الأضواء التى يراها فى تاريخ « فيروز شاهى » لضياء الدين البرنى (مات بعد ٧٥٨هـ) « و تحفـة فيروز شاهى » « لسراج عفيف » و « تاريخ گلزار ابراهيمى » المعروف بتاريخ فرشته لمحمد قاسم البيجابورى (١) .

فكانت الهند فى حاجة إلى مؤرخ للرجال «كابن خلكان» (م٦٨١هـ) و مستعرض للتاريخ العلمى كالحاج خليفه جلبى زاده و وصاف كالمقريزى (م ٨٤٥ هـ) حتى توفى هذه البلاد التى كثر فيها الرجال وازدهر فيها العلم و اتسعت فيها المدنية حقها من التاريخ ، والتسجيل والتصوير ، و قد وفق الله العلامة السيد عبد الحى بن فخر الدين الحسنى (م ١٣٤١هـ) ليمثل هولاء الثلاثة العظماء فيما يختص بالهند ، ترجمة وتاريخاً ، واستعراضاً و تصويراً ، وطالما سمت همة أصحاب النفوس الكبيرة إلى تمثيل أشخاص مختلفين ، و إلى القيام بعمل ينوء بالعصبة أولى القوة ، و قـد أنتج بعض الأفراد فى تاريخ الاسلام العلمى قديماً و حديثاً ما قد تعجز عنه المجامع العلمية فى هذا الزمان ، « فتاريخ دمشق » عمل رجل (٢) واحد و « لسان (٣) العرب » انتاج رجل واحد ، وفتح البارى فى شرح صحيح

(١) و يستثنى من ذلك كتاب « آئين أكبرى » و « أكبر نامه » لأبى الفضل الناكورى و ما ألف من الكتب بعدهما عن الملوك التيموريين « كباد شاه نامه » و « مآثر عالمكيرى » إلا أنها كلها مختصة بشخصيات معينة وعهود خاصة ، .

(٢) هو ابن عساكر (م ٥٧١ هـ) .

(٣) لابن منظور (م ٧١٤ هـ) كتابه « لسان العرب » فى ٢٠ جزءاً .

البخـارى (١) أثر رجل واحـد ، و تاج العروس فى شرح القاموس و «اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين» تاليف رجل واحد (٢) ومعجم المصنفين مأثرة رجل واحد (٣) فألف أولا كتابه «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» ـ فى تراجم أعيان الهند ـ من القرن الاسلامى الأول إلى القرن الرابع عشر الهجرى ، (٤) فى ثمانية أجزاء ، تشتمل على أكثر من أربعة آلاف و خمس مأة ترجمة ، و قد اقتدى فيه بابن خلكان فى الدقة و الاقتصاد و وضع الرجال فى منازلهم ، وألف كتابه معارف العوارف فى أنواع العلوم والمعارف ؛ (٥) وهو دليل شامل لمؤلفات

(١) للمحدث الكبير ابن حجر العسقلانى (م ٨٥٣هـ) و هو فى ١٣ جزءاً .

(٢) هو العلامة السيد مرتضى بن محمد الزبيدى البلكرامى (م١٢٠٥هـ) كتابه « تاج العروس » يقع فى عشرة مجلدات كبار و « اتحاف السادة المتقين » يقع فى عشرين مجلداً ،

(٣) للعلامة محمود حسن خان التونكى (م ١٣٦٦هـ) وكتابه يقع فى ستين مجلداً و ٢٠ ألف صفحة وتحتوى على تراجم أربعين ألفاً من المصنفين .

(٤) قامت دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ـ دكن ـ الهند ، بطبع هذه السلسلة . وقد ظهر الجزء الأخير و هو الجزء الثامن فى ١٩٧٠ م .

(٥) طبع هذا الكتاب باسم « الثقافة الاسلامية فى الهند » فى دمشق ، طبعه المجمع العلمى العربى سنة ١٩٥٨ .

www.abulhasanalinadwi.org

علماء الهند ؛ مع تاريخ دخول العلوم الاسلامية فى هذا القطر وتطورها ، و تاريخ مناهج الدرس فيه ، و المراحل التى مرت بها .

ثم أقبل على هذا الموضوع الذى هو من أشد الموضوعات العلمية فى هذه البلاد غموضاً وخمولا ، ومواده كما قدمنا إما منثورة مبعثرة فى ثنايا السطور فى الأسفار الكبيرة و هى إشارات لا تفى بالغرض و لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وإما هى مطمورة مغمورة ، تحتاج إلى نفض أتربة وإزالة أنقاض ، ثم إن كثيراً منها يوجد فى غير مظانها فلا يهتدى إليها ولا يتفطن بها إلا من عاش بين الكتب ، — بين مطبوع ومخطوط — مدة طويلة ، وأرهق عينه وأضنى نفسه فى مطالعة كل ما ألف فى التاريخ والأخبار و التصوف وما لا يتصل بالتاريخ عن قريب و بعيد ، ويكون كالنحلة تدور بين الأشجار و تجلس على الرياحين و الأزهار فتمتص منها الرحيق فتحوله إلى عسل مصفى ، فيه شفاء للناس ، و يرزق صبرها و حرصها وتلطفها وحكمتها فى قضاء وطرها واخلاصها فى عملها وإيثارها فى نفع غيرها .

فألف هذا الكتاب الذى أتشرف بتقديمه والذى أسماه « جنة المشرق و مطلع النور المشرق » ـ فذكر فيه جغرافية البلاد و موقعها من الأرض وما يتعلق بها ، ثم ذكر حاصلات الهند (و هو باب يكاد هذا الكتاب ينفرد به فى اللغة العربية) و قد ساعدته على إكماله و تحقيقه صناعته الطبية فذكر حاصلاتها بين أشجار و فواكه و أزهار و رياحين و حشائش وعقاقير و أصناف النبات ، ثم ذكر معادن البلاد و ما تهم معرفته من أحوال الهند ، من ديانات و لغات و غير ذلك ، ثم تناول

الجغرافية بالتفصيل ، و أهم ما جاء فيه ذكر كور الهند ، و أشهر مدنها وقراها فى الدولة الاسلامية ، وتوصل بذلك إلى ذكر ما كانت عليه الهند فى العهد الانجليزى ، ثم استعرض تاريخ الحكومات الاسلامية فى الهند ، المركزية منها و الاقليمية (ملوك الطوائف) فى اجمال واختصار ولكن فى تحقيق و دقة . . إلى آخر ملوك الهند فى دهلى ، و ذكر الثورة الهندية الشهيرة و قيام الامارات الاسلامية ، و قد ألحقنا به تذييلا و تكميلا بقلم نجله الأكبر الدكتور السيد عبد العلى الحسنى ، مع بعض الزيادات بقلمنا ، إكمالا للفائدة ، فصار به هذا الكتاب مطابقاً للاحداث الأخيرة .

و يلى كل ذلك القسم الذى هو قيمة هذا الكتاب العلمية والتاريخية و ميزته بين الكتب ، و هو الفن الثالث فى الخطط و الآثار ، فيرى فيه القارى صورة واضحة القسمات ، ظاهر الملامح للعهد الاسلامى الزاهر ، الذى كان هدفا للظلم و القسوة من كثير من المؤرخين الأوربيين والهنادك ، و موضع الغفلة و الاستهانة من كثير من مؤرخى المسلمين و المشتغلين بالعلم والدراسات فى الجامعات والمجامع العلمية ، واشتمل هذا الفن على خطط الملوك فى الأحكام السياسية و نظام المملكة و عاداتهم فى الجباية و فى العدل و القضاء ، و مآثرهم الانسانية و آثارهم فى الأمور النافعة . وذكر العساكر و ترتيبها و نظامها ، وقد نجح المؤلف فى تقديم كمية العساكر الاسلامية ، و البحرية و ذكر صفة القتال ، و ذكر المناصب و أهلها و فيها تفاصيل دقيقة ، ثم ذكر ما أحدثه الملوك المختلفون فى عهدهم فى السياسة و فى الخروج للناس ، إلى غير ذلك ، و تحدث عن الأعياد و المواسم والأيام المشهودة و آداب التحية .

www.abulhasanalinadwi.org

و يلى ذلك فصل من أهم فصول الكتاب و أكثرها قيمة علمية فى ذكر السنين والشهور والساعات ، و طريق المسلمين فى الهند فى التاريخ ، و النقود و الموازين و تقسيم الأرض بحسب المساحة و أصنافها ، وأحكام العشر والخراج . ومالية الدولة الاسلامية ، و لا يقدر قيمة هذا الفصل و ما جاء فيه من معلومات قيمة ، و مدى نجاح المؤلف فى جمعها إلا من اضطر إلى البحث فى هذا الموضوع ، و طالع آلافا من الصفحات .

ثم انتقل إلى الفصل الأخير ، و هى المؤسسات الخيرية و الأمور النافعة التى قام بها الملوك المسلمون ، و الآثار المعمارية و التحف الفنية التى خلفوها وراءهم ، وزينوا بها هذه البلاد ، من شوارع عامة وتنظيم البريد و حياض و أنهار وحدائق و بساتين وجوامع و مدارس ـ و قد استقصى فيها استقصاءاً كبيراً ـ و مارستانات (مستشفيات) و ملاجئ للفقراء و العجزة (بلغور خانه) و استطرد إلى ذكر المقابر العظيمة و المشاهد ، و ختم الكتاب بذكر نوادر ما صنع المسلمون فى عهد حكمهم و نبوغهم ونشاطهم العقلى وحريتهم السياسية ؛ وهى عصارة دراسة طويلة ومكتبة ضخمة .

لقد نزل مستوى الدراسات العلمية و البحث العلمى نزولا كبيراً فى هذا العصر ، حتى قلت قيمتها و هانت منزلتها ، فنى كل شهر يطالعنا كتاب له اسم هائل و موضوع ضخم ، قد جمعت فيه معلومات ، والتقطت على عجل ، و من غير تمحيص وهضم من بعض كتب المتقدمين ، ورصفت ترصيفاً على طراز المؤلفين الأوربيين ولكن تنقصها الأصالة العلمية والرسوخ فى الموضوع و الفقه العميق له ، أما هذا الكتاب الذى لم يتبجح به مؤلفه ولم تقم له دعاية فى سوق العلم بل بقى مغموراً ثلث قرن تقريباً بين ماخلفه

المؤلف من مخطوطات وأوراق ـ فإن فصلا واحداً منه يتضمن ما انتشر فى مكتبة، وإن صفحة واحدة منه تقوم بكتاب كبير ، وهكذا أعمال السلف المخلصين التى أريد بها وجه الله ورضا الضمير وخدمة العلم وتحلت بالاخلاص و التطوع و روح الاحتساب وتميزت بالخفاء و التواضع و الخمول ، حتى قدر الله ظهورها فى أوانها وبعد أن مضى على وفاة المؤلف عقود من السنين .

وقد كانت هذه قصة هذا الكتاب فقد تعرض للتلف مرتين ، مرة فى سنة ١٩٢٣م ، لما أخذه أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوى وهو تلميذ المؤلف ، لينشره من دار المصنفين بأعظم كره (الهند) التى كان يرأسها ويديرها ، فقدمه لمطبعة فى دهلى ، فكانت الحروف العربية نادرة فى الهند ، فبقى الكتاب فى ركام من الأوراق ، حتى وصلت إليه الأرضة وخرمته ؛ وقد طبع من الكتاب ٢٩٢ صفحة ، ولما اطلع على ذلك ابن المؤلف الدكتور عبد العلى الحسنى ، أنقذه من هذا العدو الفاتك ، وأخذه من هذه المطبعة الغافلة، وصحح هذا الكتاب وملأ فراغه فى ضوء مؤلفات المؤلف ومصادر الكتاب ، حتى أكمل هذه النسخة ولم تتهيأ الأسباب لنشره ، فهجم عليه السوس مرة ثانية وتلفت بعض صفحاته ، فجاهدنا فيه مرة ثانية و بحثنا عن النسخ الأخرى فوجدنا نسخة للجزء المطبوع بمكتبة دار المصنفين فأكملنا به الناقص وصححنا به الغلط ، وجهزنا الكتاب للطباعة والنشر فى شكل نهائى لا نقدر على أحسن منه ، و قد شاهدنا تيسير الله تبارك وتعالى ونصرته فى حفظ هذا التراث الثمين واستخراج هذا الكنز الدفين ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

www.abulhasanalinadwi.org

و كان هذا الأثر العلمى أمانة عند ورثة المؤلف و أفراد الأسرة ، و أمانة الأفراد عند الأفراد و المخطوطات عرضة للحوادث و الاهمال والتلف ، يشهد بذلك تاريخ المكتبات الفردية والذخائر العلمية التى خلفها الآباء للأبناء ، لذلك عزمت أسرة المؤلف على أن تتخلى عن مسئوليتها فى أقرب زمان فيكون هذا الكتاب ملكاً للأمة التى كتب لها ، و زينة لمكتبات العالم ، فنبحث عن أفضل وسائل نشر هذا الكتاب و إخراجه للناس ، و الله الميسر و المعين ، إنه لا يضيع عمل العاملين .